امبراطور المانيا والحرب

الرجل كما هو

(١)

صدر حديثاً كتاب بالانكليزية عنوانهُ « امبراطور المانيا كما عرفتهُ في اربع عشرة سنة » . وهو من قلم المستر ارثر دايفز الاميركي كان طبيباً للاسنان في برلين وعالج اسنان الامبراطور من سنة ١٩٠٤ الى ١٩١٧ وكان الامبراطور يحدثهُ بصراحة في شؤون جمة . وقد قال في مقدمة الكتاب انهُ شعر في بادىء الامر بان آداب الحرفة توجب عليهِ الصمت ولكنهُ لما رأى الازمة الكبرى التي تواجه العالمين وادرك ان ما يعلمهُ عن الامبراطور قد يفيد الحضارة أيقن اذ ذاك ان واجبهُ الوطني مقدم على واجب حفظ السرّ واسمى منهُ . ثم شاور زملاءهُ في صناعتهِ فامنوا على قولهِ . وعليهِ كتب هذا الكتاب في عشرة ابواب . ونستخلص منهُ في مقالات متتابعة ما يسع المقام ونراهُ ذا فكاهة وفائدة خاصة للقراء قال :

الحرب بين اميركا والمانيا

لما اعلنت الحرب بين اميركا والمانيا في ٦ ابريل سنة ١٩١٧ كنت في برلين . وكنت قد قضيت فيها ١٤ سنة طبيباً للاسنان . والامبراطور من الذين كنت اعالج اسنانهم في هذه المدة كلها . ولست اذكر عدد زياراتهِ لي ولكنها على كل حال لم تكن اقل من ١٠٠ وربما كانت ١٥٠ . وكان اذا فرغت من معالجتهِ يبقى عندي من ١٠ دقائق الى ساعة ونصف يحادثني في الشؤون المتداولة فتعارفنا تعارفاً تاماً لم يكن ليتسنى لاحدنا لولا ذلك

ولما شهرنا الحرب على المانيا كنت قد عالجت كثيرين من اهل الدوائر المقربة وكنت محسوباً من اخص المقربين فلم اكد اصدق اني مع هذا كلهِ بتُّ « عدوّاً اجنبياً » .

معاهدة قديمة

وفي اليوم الذي اعلن خبر قطع العلاقات بين البلدين نشرت الصحف الالمانية صورة معاهدة قديمة بين المانيا واميركا من مآلها انهُ اذا شهرت حرب بينهما يعطى الاميركيون في المانيا والالمان في اميركا مهلة ستة شهور لتسوية امورهم وتصفية اعمالهم قبل عودة كلّ فريق منهم الى وطنهِ . وقالت الصحف ان هذه

المعاهدة عقدت في عهد فردريك الكبير وتم تنفيذ وتستمر المانيا بها . ولما كان عدد الالمان في اميركا اكثر كثيراً من عدد الاميركيين في المانيا ادركت حالاً معنى نشر الصحف لصورة هذه المعاهدة وعليه استبعدنا كثيراً على المانيا مخاشنة الاميركيين الى حدّ تضطر اميركا عندئذٍ ان تعاملها بالمثل

مسئلة الاعتقال

ورأيت ان استشير بعض اصحاب النفوذ في امري فقصدت الطرفون سطّم احد السفراء انا بقين وكان من زبائني وكانت لهُ صلة شديدة بالبلاط الامبراطوري وكان ابن اخيهِ وكيلا للخارجية . واول سؤال القيتهُ اليهِ هو هذا

— ماذا يصيب الاميركيين في هذه البلاد اذا شهرت اميركا الحرب على المانيا

— هذا يتوقف على كيفية معاملة اميركا لرعايانا فيها . فاذا اعتقلتهم فلا بدّ لنا نحن من اعتقال الاميركيين . وهذا الحكم يتمشى عليك انت ايضاً ولكن اذا كتبت كتاباً الى رئيس البلاط اوصلهُ اليهِ وهو صديق لي

— لكن بين المانيا واميركا معاهدة نشرت الصحف خلاصتها منذ ايام (وهنا ذكر خواها المتقدم)

— نعم وستحترم المانيا المعاهدة اذا احترمتها اميركا . واري انهُ يجب عليك انتظار الحوادث ولكن لا سبيل الى الهمّ والقلق

— لنفرض ان بعض الالمان رعايانا في اميركا جمعوا يتعون الكباري او معامل الذخيرة فقتلهم الاهالي جزاء اعمالهم هذه فماذا تعمل المانيا

— اقول لك الحق وهو اني لا اعلم

خرجت من عندهِ غير مسرور بنتيجة مقابلتهِ . ولكن بعد ذلك بيومين زارني البرنس فون بلس وهو من اقرب مشيري الامبراطور . فسألتهُ عن اعتقال الاميركيين فقال معها يصب قومك هنا فانت وعائلتك في حرز حريز لان الامبراطور اوصى بكم كتابة

كارت الامبراطور

ومن الحوادث التي حملتني على الاطمئنان وعدم التسرع في ترك برلين ورود كارت غريبة عليّ من الامبراطور . وكان على وجه منها صورتهُ وعلى الوجه الآخر هذه الكلمات الآتية مكتوبة وممضاة بالانكليزية :

عزيزي الدكتور دايفز

اتمنى ان يكون عام ١٩١٧ عام هناء تامّ لكم وليم ا . م

وكانت هذه الرسالة اول رسالة من نوعها جاءتني من الامبراطور . فان البطاقات المصورة التي كان يرسلها لي في زمان السلم كانت كلها ممضاة بالالمانية

فلما شهرت الحرب ايقنت اني وان كنت قد صرت « عدوّاً اجنبياً » فان لي شيئاً من الامتياز يمكنني من الاقامة في برلين الى ان يتمّ استعدادي للرحيل عنها . وكان في تركي لبرلين ما فيه من الخسارة المادية عليّ . فقد عاد عليّ ممارسة صناعتي فيها بكسب كثير . ومع توتر العلاقات بين بلادي والمانيا قبل انقطاعها لم يهجرني الا القليل من زبائني وبقي هذا امرهم حتى بعد انقطاع العلاقات السياسية . وربما كان كثيرون يميلون الى مقاطعتي لولم يستمرّ الامبراطور على زيارتي للتطبب عندي ولكن بعضهم قالوا لي بصريح اللفظ ان بقاءهم زبائن لي منتظر ولكن تردد الامبراطور الى عيادتي عمل في منتهى المنادة لمصلحة الوطن بعد ما بتّ « عدوّاً اجنبياً »

اسباب تركي برلين

وقد كان هنالك ثلاثة اسباب اضطرتني الى تصفية اشغالي والعود الى وطني باسرع ما يمكنني . الاول انهُ لما اغرق الالمان الباخرة لوزيتانيا فقدت كثيراً من لذة السكن في المانيا واحتراف حرفتي فيها . فعقدت العزم حينذاك على الرجوع الى بلادي ومزاولة حرفتي فيها مفضلا الابتداء من الاول على البقاء في بلاد لا ترى قتل النساء والاولاد سنة او عاراً

والسبب الثاني ان حالة الطعام في المانيا كانت تزداد سوءاً كل يوم

والثالث وهو اهمها اعتقادي بان ما اعلم عن الامبراطور وتدابيره يجب ان يطلع عليهِ ولاة الامر في اميركا بلا امهال بعد نشوب الحرب بين الامتين . وان السبيل الوحيد الى ذلك هو الرجوع الى بلادي مهما يكن فيهِ من الخسارة عليّ

ولقد اقتصر حديثي مع الامبراطور في اوائل تعرفي بهِ على الموضوعات العامة ثم لما زاد علمهُ بي في السنين الاخيرة نبذ كلّ تحفظ وجعل يحدثني بالمسائل التي كانت شغلهُ الشاغل على تعددها بمرور الايام . فلما نشبت الحرب امست مدار حديثنا وخصوصاً يد اميركا فيها

وكان بين زبائني معظم اعضاء الاسرة المالكة واكابر الالمان فاستفدت منهم أشياء رأيت انها قد تكون ذات قيمة للاميركا في سبر غور المانيا والوقوف على دخائل امرها

لست بجاسوس

لم اكن جاسوساً ولم ابذل اقل جهد في التعرض لشؤون الالمانية . وما علمت عن آراء الامبراطور ومقاصده وخططه ومطامحه انما القاه اليّ عفواً ولم يوثقني بموثق ما ولا اوجب عليّ حفظ السرّ . وكنت قد اوجبت على نفسي ان لا اتلفظ امام احد بشيء مما سمعت من الامبراطور لاني علمت انهُ اذا سمع اني بحت لاحد به كان ذلك آخر عهد صداقتنا . وقد كان هذا سرّ تعدد المواضيع التي بحث معي فيها بحرية تامة آنذاك بعد آن

والآن بلادي والمانيا في حرب وان « عدوٌ اجنبيٌّ » في المانيا والامبراطور عدوٌ لاميركا . ولطالما شعرت بان ما اعلمهُ عن هذا الامبراطور الذي سيد لمتاتلة العالم كله يجب ان ينتقل الى الذين في ايديهم زمام بلادي والذين يقودونها في هذا المعترك العظيم الذي سيتُّ مسئلة سيادة الامم ومن يكون سيدهن — الاتوقراطية ام الديموقراطية

وشعرت ايضاً بانني اعرف الامبراطور معرفة لا يدانيني فيها احدٌ من الاميركيين فانني اجتمعت بهِ منذ ابتداء هذه الحرب مراراً وتكراراً مما لم يتسن لمثلهُ لاميركي غيري . وارتاب فيما اذا كان حدث اجنبياً ما مثل الصراحة التي حدثني بها

الامبراطور واميركا

ومن الاحاديث التي دارت بيننا ووقعت في نفسي وقعاً لم يكن لغيرها حديث جرى بيننا في خريف سنة ١٩١٦ . ذلك ان الامبراطور زارني في عيادتي على عادتهِ . وبعد ان فرغت من معالجتهِ لبث عندي يحدثني ببعض وجوه هذه الحرب واطوارها . وكنت قد عدت من اميركا حديثاً ولعلّ هذا الامر هو الذي سوقهُ الى الحديث معي في الحرب وشؤونها

تجاذبنا اطراف الحديث في الحرب هنيهة ثم غير الموضوع فجأة وعدني بالسؤال الآتي

— ماذا جرى لبلادكم يا دايفر

— من اية جهة يا صاحب الجلالة

— ماذا دهاها حتى اساءت معاملة المانيا الى هذا الحدّ . لِمَ تصرّون على امداد الحلفاء بالذخيرة والمال . ولِمَ لا يعامل رئيسكم امم اوربا المتحاربة معاملتهُ للمكسيك — وذلك بان يحرّم اصدار الذخيرة الى اوربا ويتركنا وشأننا تفتتل الى ان تفصل الايام بيننا . وانتم لا ترسلون الذخيرة الينا فلمَ ترسلونها الى الفريق الآخر

— ان ما أعلمهُ يا صاحب الجلالة هو ان المانيا لم تكفّ عن امداد روسيا بالذخيرة في حرب روسيه واليابان . فلم يكون عمل مثل هذا سبباً اكثر من امدادنا الحلفاء بالذخيرة . ومثل ذلك جرى في حرب اسبانيا واميركا . فان . . .

فلم يتركني الامبراطور اكمل الكلام بل نهض عن كرسيهِ ومشى نحوي متقاعساً ثم قال

— هذا يدهشني منك يا دايفز . لا وجه للشبه بين الحالتين . فاننا لما ساعدنا روسيا على اليابان ساعدنا امة بيضاء على امة صفراء . لا تنسَ هذا ابداً . اما الآن فان بلادكم مدفوعة بعوامل مالية صرفة والمسئلة مسئلة ريالات ريالات ريالات » . وكان كلما ردد كلمة ريالات دقّ يدهُ بيده ثم قال « ان الريالات عند اميركا اعظم قيمة من ارواح الالمان . وهي ترى من الصواب قتل شعبي »

وكان قد بلغ الغيظ منهُ حدّاً لم يبلغهُ قبلاً امامي الاّ في حادثين او ثلاثة فلم اشأ ان اضيف الى النار وقوداً بازدِ على اقوالهِ . وما زال يدنو مني ببطء ثم قال « اعلم يا دايفز انهُ لا بدّ من عقاب اميركا على اعمالها » وقد ادركت ان هذه العبارة التي كرّرها فيما بعد مراراً بالفاظها ومثل النبرة التي سمعتها هذه المرة تكشف النقاب عن الخطة التي ينوي سلوكها نحو هذه البلاد

رخصة السفر

في مايو سنة ١٩١٧ طلبت رخصة لارسل امرأتي وابنتي الى مونتره على بحيرة جنيف في سويسره على امل ان اوافيهن فيها باسرع ما يستطاع ثم نسافر معاً الى اميركا. فرت الاسابيع وايدي الموظفين تتداول الطلب ثم علمنا في آخر يونيو انهُ رفض

وبعد ذلك بيوم او يومين زرني الامبراطور في محلّ عيادتي فاخبرتهُ عما جرى لي وقلت « ان ابنتي سقيمة وأرى ان لا غنى لها عن تبديل الهواء. وقد طلبت لها ولامرأتي رخصة بالذهاب الى مونتره فرفض طلبي . فقال سأرى ما استطيع ان اصنع لك في هذه المسئلة . وفيما كان يودعني قال على مسمع من ضابطين كانا

يصحبني . اما المسئلة التي كنتني بها فاتركها لي وسأرى ما استطيع ان اصنع فيها .

فقلت في نفسي ان نهوض الامبراطور يحل مشكلتنا حالاً فلذلك تلبثت الصعداء منتظراً قرب الفرج . وبعد ذلك بيومين جاءني كتاب من الكونت فون ملتكي احد الضابطين اللذين كانا يلازمان الامبراطور يقول فيه ان الامبراطور كلفني عن مسئلة السفر الى سويسره واخبرني ان سفركم اليها مستحيل في الاحوال الحاضرة . ولكن اذا كانت صحة ابنتك تقتضي تبديل الهواء فالامبراطور يرى انهُ قد يمكنكم السفر الى التيرول النمسوي فان هواءهُ مثل هواء سويسره . ولكن قبل اعطائكم رخصة هذا السفر يجب ان تأخذوا شهادة من طبيب القسم الذين انتم تابعون لهُ بان هذا السفر ضروري . ولكني لما شأ ارسالها الى التيرول بل طلبت رخصة لسفرنا كلنا الى اميركا فسمحوا لامرأتي وابنتي بالسفر اليها في ١٠ اكتوبر بطريق كوبنهاغن . اما انا فلم يسمحوا لي بحجة ان الطلب الذي ارسلتهُ يسفري متأخر عن الطلب الذي ارسلتهُ لسفرهما

زيارتي بوتسدام

كنت ذات يوم مستغرقاً في النوم والساعة ٣ صباحاً واذا بخادمة توقظني وتقول انهم يطلبونك بالتلفون من قصر الامبراطور . فهرعت الى التلفون فقيل لي ان الامبراطور يشكو الم ضرسه وسيرسل لي اتومبيلهُ في ساعة او نحو ذلك . فلبست ثيابي وتهيأت للسفر . وفي الساعة ٦ جاء الاتومبيل فركبتهُ الى قصر بوتسدام والمسافة اليه ١٨ ميلاً . فلما بلغتهُ اقتادوني الى غرفة لبس الامبراطور حيث وجدت الطعام معدًّا لي وكان مؤلفاً من قهوة حقيقية وخبز ابيض حقيقي وزبدة ومربى وسكر وقشدة ولحم بارد . وكانت قد مضت عليَّ مدة لم اذق طعاماً مثل هذا . ولم يكن في المانيا احد احسن مني في مسئلة الطعام الا الاسرة المالكة وكبار الملاك . فاكلت كل ما قدِّم لي ما عدا شريحة خبز . وكان يحادثني وانا اتناول الطعام رئيس ندل الامبراطور . فلما رآني شبعت عن هذه الشريحة جعل يلحُّ عليَّ في اكلها قائلاً « لا يسمح لنا بكثير من امثالها حتى في هذا المكان » فقبلت نصيحتهُ واكلتها

الامبراطور يثأم

ولما دخلت غرفة الامبراطور رأيتهُ بالياً في وسطها لابساً ثوباً عسكرياً

ومنادياً اللورد فيشر مصافحة وهزّ يدي هزة وداد وقال « لم اشعر طول عمري بالم مثل هذا يا دايفز » . فاجبته على كرسي فالتفت اليّ وقال ضاحكاً « انظر يا دايفز ان تريحني من المي فاني لا استطيع محاربة العالم كله وضرسي يوجعني »

ولم استعمل للامبراطور مخدراً عاماً او موضعياً طول مدة معالجتي اياه . ذلك اني كنت اقول له آناً بعد آن ان استعمال مخدر موضعي يكفيك الالم فكان يرفض ذلك قائلاً « لا ريب ان السيدات يحببن المخدرات اما انا فاحتمل الوجع بلا مخدّر » . ولم أرهُ مرة واحدة يتحرك في كرسيه واثنا اعالجهُ فكان افضل زبائني من هذه الجهة . ولطالما خطر ببالي بعد نشوب نار الحرب ان عدم مبالاته بالالم هو سر عدم مبالاته بالآلام التي سببها للآخرين

الميدان الايطالي

ظلت عالجهُ ٢٠ دقيقة حتى زال المهُ وعاد اليه انبساطهُ العادي فاخذ يشرح لي سبب اهتمامه بزوال المهِ قائلاً « انا نازل الى ايطاليا لأرى ما صنع جنودي الابطال . والله اعلم ما فعلنا بالقوم هنالك . فان هجومنا على ريفنا لم يكن الاّ هجوماً صورياً . ولطالما اعلنا عن هجومنا في الميدان الايطالي ثم لم نهجم حتى ظنّ الايطاليون اننا غير قادرين على الهجوم . وبقي قومنا ثلاثة اشهر يتحدثون بالهجوم الايطالي جهاراً ويقولون انهُ سيكون في اكتوبر فقال الايطاليون في انفسهم هذا كلام في كلام وظنونا « تبلف » . فاما زحفنا على ريفنا تأكدوا حينئذٍ صحة ظنهم وخيل اليهم ان لنا من الشغل الشاغل هناك ما يحول دون هجومنا عليهم وهكذا ادركناهم تامين » . وكان وجههُ يتلألأ بشراً وبياض سروراً وهو يبحث في خطط قواده وحسن نتيجة القتال في ايطاليا ثم قال « فلا بد من ذهابي الى هناك لأرى اكرام الذخيرة التي غنمناها . وقد قطعنا خط تقهقرهم شمالاً فاخذوا يتقهقرون جنوباً فاسرنا ٦٠ الفاً منهم في حقول الرز . ومن اعظم الاغلاط التي ارتكبوها اخذهم الاهالي معهم فعصت بهم طرقهم الضيقة وعاقوا تقهقر جنودهم . وكان تقهقرهم في بلاد لا تدرّ عليهم شيئاً وكنا حيثما ذهبنا رأينا . ولا يرجى لايطاليا نهوض من هذه الكبوة . هذا عون « حقيقي » من الله بات بهِ الحلفاء في يدنا ! ! » ثم ضرب يدهُ اليسرى بيده اليمنى ليعرب عن اعتقاده الوثيق بأن تضعضع ايطاليا هو نقطة الانقلاب في هذه الحرب

ثم رفع جريدة المانية عن مائدة التي امامهُ وقال « اني ذاهب لتناول طعامي فان الامبراطورة تنتظرني » . وبينما ان صافحني خرج من الغرفة

وفي اليوم التالي جاءني الى محل عيادتي وكانت هذه الزيارة زيارتهُ الاخيرة لي فلم يدر بيننا حديث ذو بال . وفي ٢٢ يناير سنة ١٩١٨ سافرت من المانيا الى اميركا وكنت آخر اميركي غادرها بعلم رجال الحكومة وموافقتهم

صفات الامبراطور

لو كنت قد تركت المانيا في يناير سنة ١٩١٤ بدلاً من يناير سنة ١٩١٨ وطُلب مني ابداء رأيي في صفات الامبراطور واخلاقهِ لجاءت الصورة التي اصوّرهُ بها كاذبة لانها تمثل ظاهرهُ وتخفي حقيقتهُ . فاني كنت اصورهُ بصورة رجل كلّ قيد اصبع في ظاهرهِ امبراطور ومع ذلك فانهُ يستطيع ان يبدي من التجمل واللعة والانس الحضر ما هو جدير باعظم ارجال ديموقراطية . عينهُ ساحرة منطقهُ عذب كثير الفراهة واسع الاطلاع حادّ الذهن صادق الفراسة عظيم الذاكرة يخلب الالباب بظرفهِ ولطفهِ . محبّ الذات الى حدّ يجعلهُ عديم المثل . لا يصبر على من يريد اصلاح خطائهِ ومعارضتهُ في رأيهِ

هذه الصورة صحيحة ولكنها ناقصة فصبغتها نسبية وهذا ما يجعلها كاذبة فلما جاءت الحرب كلتها لانها اظهرت الامبراطور بمظهره الحقيقي والوانهِ الصحيحة — لم تغير الحرب اخلاقهُ بل رفعت عنها الغطاء فبانت كما هي

« اعلان حسن »

في اوائل تعرفي بالامبراطور شكرتهُ على حسن لطفهِ والسلام عليّ من بعيد كلما مرّ امام نافذتي وهو يتمشى في « تيارجارتن » . فقال « هذا اعلان حسن لك يا دايفز . فان للناس يرونني اوّح بيدي لك ويظنون انك طبيب اسنان حاذق والاّ ما كنت لاجيء اليك وهذا يساعدك في حرفتك » . وبقي طول مدة اقامتي في برلين يبدي مزيد الاهتمام بي وبنجاحي ولطالما سأل عني وعن حركة عملي . واذا كان في محلّ عيادتي لم يدخلهُ احد غيرهُ . وكان ربحي من التصالي به يرجح على خسارتي من المضايقة التي كانت زيارتهُ تسببها لي ولزبائني ومع ذلك سعى جهدهُ في تخفيف وطأة هذه المضايقة بزيارتي قبل اوقات الزيارة وقال انهُ يفعل ذلك كيلا اضطر الى تبديل كثير في مواعيدي

ستأتي البقية